لذة الوصل

قال ابن حزم[١]: "ولقد جرَّبتُ اللذاتِ على تصرُّفها، وأدركتُ الحظوظَ على اختلافِها، فما للدنوّ من السلطانِ ولا للمال المستفادِ ولا الوجودِ بعد العدَم ولا الأوبةِ بعد طُول الغَيبةِ ولا الأمنِ من بعد الخوفِ من الموقعِ في النَّفسِ ما للوَصْل!

ولا سيّما بعد طولِ الامتناع، وحلولِ الهجر، حتى يتأججَ عليه الجوى، ويتوقدَ لهيبُ الشوق، وتتضرَّمَ نارُ الرجاء"[٢].

•••

البيان:

(وصال المحبوبات أياً ما كان هو جوهر سعادة هذا الإنسان ولذة قلبه. وأوفر الناس حظاً في دنياه هو من تيسَّر له مواصلة ما يحب ومن يحب، من الأشخاص، والمراتب، والمناصب، والمعارف، والعلوم... والتواصل هو إكسير السعادة البشرية)[٣].

ويحكي لنا أحدُ الأذكياء عصارة تجربته الموافقة لهذا المعنى، وقد كان من أصحاب العيش الرَّغيد والحياة الهانئة والمال الوفير والدنيا الحاضرة، ويبدأ حكاية تجربته بقوله: (**ولقد جرَّبتُ اللذاتِ على تصرُّفها، وأدركتُ الحظوظَ على اختلافِها...**)؛ لتعلم أن كلامه الآتي لم يصدر إلا عن معرفةٍ وتجربةٍ ودراية وأنه ليس ممن يلقي الكلام على عواهنه، ولا هو ممن يرسل العبارات على غير هدى.

فذكر أنه لم يجد ما يقع في النفس موقعَ الوصل على اختلاف ألوان اللذائذ وتصرُّف أحوال المحبوبات. وفضَّله على لذاتٍ لا يكاد يماري في حُسن موقعها اثنان، فكم في الناس من

---

(١) هو أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، علامة المغرب، صاحب الفنون الكثيرة، مجدد مذهب أهل الظاهر وحامل لوائه بلا مرية، وهو معدودٌ في أكثر الناس تصنيفاً وتأليفا، نشأ في رغدٍ من العيش وكان ابناً لوزير الأندلس، فلما أقبل على العلم واشتغلَ به رغب عن التمذهب والتقليد وسل سيف الاستقلال والاجتهاد حتى أوذي وشُرِّد وامتُحِن. وكان إليه المنتهى في الحفظ كما كان إليه المنتهى في البيان. قال الحميدي: (ما رأيتُ مثل ابن حزمٍ ممن اجتمع له الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفسِ والتدين. وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه)، وغلب عليه مذهب أهل الظاهر والنزوع إلى الاستقلال وترك اعتبار أقوال المتقدمين حتى صرفه ذلك عن طريقة أهل السنة والجماعة في الاعتقاد في الجملة. وقال العز ابن عبد السلام: (ما رأيتُ في كتب الإسلام مثل كتاب المحلى لابن حزم والمغني لابن قدامة). ت:٤٥٦هـ.

(٢) طوق الحمامة (١٨٠).

(٣) التامور، للعبودي (٢٤).

يظل عمره يخطب ودَّ السلاطين ويرجو الدنوَّ من الأمراء؟! ومَن مِن الخليقة لا يفرح بالمال المكتسَب ويغتبط بالدراهم المحصَّلة وينتشي للكنوز المستفادة؟! ثم أي شيءٍ يفوق لذة الوجود إذا عقِبَ العدم؟ وما الذي يضاهي حلاوة الأوبة إذا تلت الغيبة؟ وأين تجد أحسن من الأمن الوارد بعد الخوف؟ فهذه كلها أنواع من اللذات لا يحيط بها الوصف.. **غير أن (الوصل) أحلى منها وألذ وأجمل وأشهى وأطيب!**

ثم ذكر معنىً لطيفاً إذ انضاف إلى الوصال لم يعدله شيء البتة، وذلك أن يكون الوصل بعد امتناعٍ طويلٍ أو هجرٍ متكرر، فلا يأتي إلا وقد سرَّح خياله ليرتع دهراً في رياض الأماني، فيستقبل الوصل بأشواقٍ مضطرمة ومشاعر جيَّاشة.

وما زال العاشقون يتوقون إلى مداعبة مشاعرهم بهذه اللذة المنعشة، ويملون الوصال إذا كان قريب المنال سهل الحصول، كما قال أحدهم:

لولا اطِّرادُ الصيدِ لم تك لذةٌ ** فتطارَدي لي بالوصالِ قليلا!

ولهذا صار المحبون يشتهون المنعَ إذا عرفوا أن مآله إلى البذل، ويرغبون في التجافي إذا استشفوا من مخايله التداني؛ لأنهم يجمعون بين لذتين هما الغاية: لذة الطمح إلى الممنوعات؛ فإنَّ كل ممنوعٍ مرغوب (والمرءُ تواقٌ لما لم ينَلْ)، ولذة الوصل والنيل فإنها جوهر سعادة الإنسان.

وزادَهُ كلَفاً بالحُبِّ أن مَنَعَتْ ** وحَبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعا!